الفكر الهندي القديم

تزخر الهند بتراث غني ومتنوع من الفكر الفلسفي يمتدُّ لنحو ألفَيْن وخمسمائة عام. وحتى وقت قريب كان الاعتقاد الشائع أن الهندَ «صوفيَّةٌ» والغربَ «عقلانيٌّ» وما زال كثيرون يتبنَّوْن تلك النظرةَ. غير أن الفِكْر الهندي في واقع الأمر يتمتع بتراث عقلاني قوي، ولم نعرف عنه شيئاً الا بعد حركة البحث والتنقيب التي أضاءت لنا الجوانب المعتمة من هذا التراث الفكري.

*في البدء لابد لنا من عرض ملحوظة مهمة تتعلق بمعنى البراهما في الفلسفة الهندوسية، **براهما** وجد الكون وروحُهُ العليا وجوهرُهُ . يُعرف بـ "الخالق."[1] وهوالمَعْبُود الأَعْلَى في التُّراث الهندوكي، الذي يتألَّف من "براهما": (الخالق) و"بشنو) :"الحافظ) و"سيفا :" (المُغْنِي. **أما بوذا** اسمه الأصلي سيذهارتا غوتاما، أو كما يطلق عليه «صاحب الهدف المحقَّق»، مؤسس الديانة البوذية المعروفة في الهند.

أ-الخصائص الاساسية للفكر البوذي

ظهرت البوذية في القرن السادس قبل الميلاد، بينما كانت الفلسفة الهندوسية هي السائدة في الهند آنذاك. ومع اختلافها عن الهندوسية، فهي أعقد منها من حيث فكرُها، وأسهل من حيث سلوكُها، -إلا أنها انسجمت معها في بعض الأسُس، كالنظرة إلى الحياة باعتبارها منبع *الآلام*: فقد تأثرت البوذية، التي أتت بعد الديانة البرهمية، في تكوينها وظهورها بمذاهب أخرى كانت لا تنفك تظهر في تلك الفترة؛ وكانت أبرز تلك المذاهب التي أثَّرت على البوذية العقيدة الهندوسية والعقيدة الجَيْنية.

يذكر المؤرخون عدة أسماء وألقاب لمؤسِّس البوذية، منها: "سدهرتا گوتاما"، "شاكياموني"، و"سدهتا" (باللغة الپالية). لكن أيًّا كان اسمه، فقد عُرِفَ بعد انتشار البوذية بلقب *البوذا*، الذي يعني "العارف المستنير". وقد ولد البوذا، على ما تقول المصادر، في العام ٥٦٣ قبل الميلاد لأبوين حاكمين، إذ كان أبوه حاكماً لمقاطعة كاپيلاڤستو. عاش بدايةَ حياته في ظلِّ ترف العائلة المالكة التي كانت تمتلك لكثير من الأموال والقصور، إضافةً إلى المكانة الاجتماعية التي امتازت بها في تلك الفترة.

ويُذكَر عن البوذا أنه، على الرغم من إمكانات عائلته التي وفَّرت له حياةً مترفة، ارتأى لنفسه حياةً أخرى قاسية، رافضاً التنعم الذي حظي به، فبدأ يلبس ثياباً متواضعة ويبدو حليق الوجه والرأس، وشرع يقسو على جسمه بالوقوف على الأشواك والنوم بين الجثث، وقلَّص من كمية طعامه، وصرف وقته في ممارسة التأمل في الحياة وفي سرِّ هذا الكون. والسبب من وراء اتخاذ

البوذا قراره بالزهد في حياة العائلة والبدء في حياة متقشفة خالية من الملذات هو إدراكه، في مرحلة عمرية باكرة، أن تقسيم الناس إلى طبقات أمر فيه ظلم. لكن طريقته في العيش هذه لم تستمر سوى سبع سنين، أدرك خلالها أن *الغلو في التقشف يعني غياب القدرة على التأمل والتفكر*: فجسمه بدأ يهزل ويضعف في شدة، مما دفعه إلى *الاعتدال* في معيشته، إلى جانب ممارسة التأمل والتفكر في سرّ الحياة.

كان الدين في نظر البوذا مجرد *سلوك* حي، ولم تكن الطقوس والعبادات والشعائر الدينية أمرًا ذا قيمة عنده، حيث يُذكَر عن البوذا، في حوار له مع أحد البراهمة كان ينوي الذهاب إلى گايا للوضوء (وهو أحد الطقوس لتطهير النفس من الآثام)، أنه قال:

توضأ هنا، نعم هاهنا، ولا حاجة بك إلى السفر إلى گايا، أيها البرهمي رحيمًا بالكائنات جميعًا. فإذا أنت لم تنطق كذبًا، وإذا أنت لم تقتل نفسًا، وإذا أنت لم تأخذ ما لم يُعطَ لك، ولبثتَ آمنًا في حدود إنكارك لذاتك – فماذا تجني من ذهابك إلى گايا إن كلّ ماء يكون لك عندئذٍ كأنه گايا.

وعلى الرغم من موقف البوذا هذا من الطقوس الدينية، إلا أن أتباعه أوجدوا لهم طقوسًا خاصة بعد وفاته، كالصلاة والصيام والحج.

كان لنظرة البوذا إلى الآلهة والدين أثرًا على أتباعه. فقد تفرعت البوذية إلى فرقتين أساسيتين: الأولى أُطلِقَ عليها مذهب *الشمال* وقد اعتبرت البوذا في جملة الكائنات الإلهية والسيرَ على خطاه فريضةً على أتباعه؛ أما الفرقة الثانية، وهي مذهب *الجنوب*، فتنكر وجود الله كشخص، ولا تعتقد بألوهية البوذا، فتعتبره إنسانًا كغيره، إلا أن ما يميِّزه هو بلوغه درجاتٍ عليا من المعرفة والسلوك السليم.

انطلقت البوذية في أساسها كتيار إصلاحي يرفض الظلم القائم ويعتبر بعض قواعد الشريعة الهندوسية غريبة وباطلة وافضًا السيطرة البرهمنية آنذاك، على الرغم من التقائه مع مذهب البراهمة في بعض المبادئ، كالتقمص، وهو استمرار النفس في العود في أجسام عديدة. أما في خصوص الأساس الفلسفي الذي انطلقت منه البوذية، فهو يتلخص في مسألة *الألم* الأزلي المتجسد في قضايا أربع استقطبت جل اهتمام البوذا في مراحل تبشيره الأولى، ويطلق عليها تسمية *الحقائق النبيلة الأربع*. أولى هذه الحقائق أن حياة الإنسان، في مجملها، أصل *الشقاء*، يبدأ منذ ولادته ويستمر طوال حياته. ونتيجة لإيمان البوذا بدورة الولادة والتقمص، فإن الشقاء لا ينتهي بالموت لأن العود للتجسد يعني تجدد شقاء الإنسان. أما *علّة* هذا الشقاء – وهي الحقيقة

الثانية عند البوذا – فهي *الانسياق وراء الرغبة والشهوة*: تزداد الرغبات والشهوات مع جهل الإنسان بحقيقة الأشياء، فتَسِم الإنسان بسمات شريرة، كالشهوانية والحقد والوهم، وتلقي به في هوة الرذائل.

الحقيقتان الثالثة والرابعة تشكلان الجزء المقاوم للحقيقتين الأولى والثانية: فالثالثة تشير إلى إمكان *القضاء على الرغبات والشهوات* بمقاومتها وكبحها – وهنا تجب الاستعانة بالقديسين البوذيين للوصول إلى درجة من الوعي تحفِّز الإنسان على رفض الشهوات. وبعد القضاء على الجهل بحقيقة الأشياء، ينطلق البوذا إلى الحقيقة الرابعة، وهي *الطريق إلى الخروج من الشقاء*، وتسمَّى *بالدرب المثمن النبيل*، لأنها تضم ثماني مراحل هي: الفهم السوي، التفكير السوي، القول السوي، الفعل السوي، الارتزاق السوي، الجلهدوي، الانتباه السوي، وأخير ًا التركيز السو ي.

على الرغم من وجود مثل هذه الأسُس والحقائق في البوذية، إلا أنه لم يُنظَر إليها في بدايتها إلا كمجموعة من السلوكيات المنطلقة من أساس أخلاقي، وليس كمذهب فلسفي متكامل. لكن، مع الوقت، بَسَطَت البوذية نظراتٍ في الكون وعقائد في أسراره ومفاهيم مجردة عن الحياة تقاطعت فيها مع نظريات فلسفية وعقلية، مما أزاح النظرة الأولى إلى البوذية بوصفها مجرد قواعد للسلوك الأخلاقي.

وبالعودة إلى الحقائق النبيلة الأربع والخلاص من الشقاء عبر بلوغ مرتبة *النيرڤانا* ("انطفاء" الأنا الفردية)، فإن أبرز الطرق للوصول إلى هذه المرتبة هو *التأمل* وتتحدد قدرةُ ممارِس التأمل التي تخوِّله الدخول في النيرڤانا بمدى التزامه سلوكيات البوذا وارتقائه على سلَّم الدرجات الثماني النبيلة، بما يمنحه القدرة على *التيقظ والاستنارة*. لكن المرء لا يصل بهذه القدرة إلى تحقيق النيرڤانا تحقيقًا تامًّا إلا بانتهاء مسبِّبات الشقاء والألم. وللوقوف على هذه الوسيلة إلى ذلك – التأمل –سيقوم الباحث بإعطاء تصوُّر أولي عن التأمل ومفهومه، قبل أن يتطرق إلى التأمل عند البوذا.

تخبرنا كتب التاريخ أن بوذا هرب من نيبال إلى الصين فرارا من اضطهاد البرهميين له ولأتباعه. فعندما خرج بوذا من الريف إلى المدينة رحب به السكان ترحيبا ملكيا وقد وصلها في قارب عبر نهر (الجانج) حيث استقبله الناس وقد زينوا الطريق من النهر إلى المدينة بالأعلام وتوجوه بالأزهار ورشوا الأرض بالمياه لمنع تناثر الأتربة وفرشوا الأرض بالزهر وحرقوا العطور على طول الطريق وجمعوا للاستقبال الفيلة والعجلات الحربية. وتبع جمع غفير من الناس بوذا في مسيره، كان هو فقيرا ولكن كان الملوك يحنون هاماتهم أمامه، كان بوذا يرحب بالناس باحترام

وقدسية ويقدم الطعام والمأوى والدواء لمن ينزل به من أغنى الناس وأكثرهم كبرياء أو حتى من أفقرهم الذي قد يرضى بالقليل من الطعام، وغيرت حياته وتعاليمه من البناء الاجتماعي للهند والصين وبلاد أخرى كثيرة لقرون طويلة تلت عصره

ب–التكوين

ولقد كان التكوين الهندي القديم كما في بقية الحضارات الاخرى يركز على الجانب الديني وينطلق منه لتفسير الوجود ومايرتبط به وهنا لابد من الاشارة الى أن أقدم آلهة ذكرتها "أسفار الفيدا" هي قوى الطبيعة نفسها وعناصرها: السماء والشمس والأرض والنار والضوء والريح والماء والجنس ، فكان ديوس (وهو زيوس عند اليونان، وجوبتر عند الرومان)، أول الأمر هو السماء نفسها، كذلك اللفظة السنسكريتية التي معناها مقدس، كانت في أصلها تعني "اللامع" فقط، ثم أدت هذه النزعة الشعرية التي أباحت لهم أن يخلقوا لأنفسهم كل هذا العدد من الآلهة، إلى تشخيص هذه العناصر الطبيعية، فمثلاً جعلوا السماء أباً، وأسموها "فارونا"؛ وجعلوا الأرض أماً، وأطلقوا عليها اسم "بريثيفي" ، وكان النبات هو ثمرة التقائهما بوساطة المطر ، وكان المطر هو الإله "بارجانيا"، والنار هي "آجني" ، والريح كانت "فايو" ، وأما إن كانت الريح مهلكة فهي "رودْرا" ، وكانت العاصفة هي "إندرا"، والفجر "أوشاس"، ومجرى المحراث في الحقل كان اسمه "سيتا"، والشمس "سوريا" أو "مترا" أو "فشنو"؛ والنبات المقدس المسمى "سوما"؛ والذي كان عصيره مقدساً ومسكراً للآلهة والناس معاً، كان هو نفسه إلهاً يقابل في الهند ما كان "ديونيسوس" عند اليونان، فهي الذي يوحي الإنسان- بمادته المنعشة- أن يفعل الإحسان ويهديه إلى الرأي الثاقب، وإلى المرح، بل يخلع على الإنسان حياة الخلود.

ولما كانت الأمة كالفرد تبدأ بالشعر وتنتهي بالنثر، فقد تحول كل شئ لمّا أصبحت الأشياء في أعين الناس أشخاصاً، إذ أصبحت صفات الأشياء أشياء قائمة بذاتها، وباتت نعوتها بمثابة الأسماء، والعبارات التي تجري مجرى الحكمة أصبحت آلهة، والشمس التي تهب الحياة انقلبت إلهاً جديداً اسمه "سافيتار واهب الحياة"، وأما ضوءها فإله آخر اسمه "فيفاسفات" أي الإله الساطع، والشمس التي تولد الحي أصبحت إلها عظيماً هو "براجاباتي"أي رب الأحياء جميعاً .

ولبثت النار "وهي الإله أجني"حيناً من الدهر أهم آلهة الفيدا جميعاً، إذ كان هذا الإله هو الشعلة المقدسة التي ترفع القربان إلى السماء، وكان هو البرق الذي يثب في أرجاء الفضاء، وكان للعالم حياته النارية وروحه المشتعلة، غير "أن" إندرا "الذي يتصرف في الرعد والعاصفة كان أشيع الآلهة كلهم ذكراً بين الناس، لأنه هو الذي يجلب للآري الهندي الأمطار النفسية التي بدت له عنصراً جوهرياً يكاد يزيد في أهميته للحياة على الشمس ذاتها، لذا فقد جعلوه أعظم الآلهة مقاماً، يلتسمون معونة رعودة وهم في حومات القتال، وصوروه- بدافع الحسد له- في صورة البطل الجبار الذي يأكل العجول مئات مئات، ويشرب الخمر بحيرات بحيرات ، وكان عدوة المحبب إلى نفسه هو "كرشنا" الذي لم يذكر في أسفار الفيدا إلا على أنه إله محلي لقبيلة "كرشنا" إذ لم يكن حينئذ قد تجاوز هذه المرحلة؛ كذلك كان "فشنو" أي الشمس التي تجتاز الأرض بخطواتها الجبارة، إلهاً ثانوياً، كأنما هو لا يدري أن المستقبل له ولـ "كرشنا" الذي يجسده؛ وإذن فمن فوائد أسفار الفيدا لنا أن تعرض علينا الدين وهو في طريق التكوين، فنرى مولده ونموه وموت الآلهة والعقائد، ونرى ذلك بادئين من النزعة الروحانية البدائية حتى نبلغ وحدة الوجود الفلسفية، بادئين بالخرافة في الفيدا أثارفاً " (أي سفر السحر) ومنتهين إلى الوحدانية الجليلة كما ذكرت في أسفار" اوپانيشاد."

ج–الفيدا والأوبنشتاد

فيدا) بالإنجليزية (Vedas :الكتاب المقدس للديانة الهندوسية وهو كتاب يقع في ٨٠٠ جلداً تقريباً تم تأليفه طيلة ١٠٠٠ سنة وقيل ٣ آلاف سنة، وهي النصوص المقدسة من الترانيم والتراتيل لدي الآريين الهنود لتكريم الآلهة.[١][٢][٣] والكتاب مقسم إلى أربعة أجزاء ضخمة هي الرامايانا ويتحدث عن نشأة الآلهة وأساطيرها والكون، والمانوسمرتي ويتحدث عن حقوق الطبقات الأربعة الهندية - البراهمة الذين خلقوا من رأس الإله كريشنا، مع العلم بأن البراهمة هم الوافدون من أواسط أوروبا والذين سكنوا على مصب نهر السند، والكشاتريا الذين خلقوا من ذراعي كريشنا والفايشيا من الأفخاذ وأخيرا الشودرا الذين خلقوا من أقدام كريشنا وهم المنبوذين والمضطهدين الذين لا يحق لهم شيء في دين الهندوس، وقد قاموا بثورة شاملة في القرن الأول الميلادي ونجم عن ذلك رفع بعض الضيم عنهم فكان إخماداً محنكاً لتلك الثورة، وأيضا المهابهاراتا تتحدث عن الأعمال والمهن وإرشادات الحياة والقضايا والوصايا، ثم أخيرا الأوبانيشاد ويتحدث عن الطقوس العبادية والأناشيد والقرابين وطريقة تقديس الآلهة، وقد ترجمت بعض الأجزاء الصغيرة من هذا السفر الضخم في عدة لغات الإنجليزية والفرنسية وغيرها الهندوسية تعطي معلومات عن الآريين وعن التعاليم والطقوس الفيدية والتراث الفلسفي الهندي .وما زالت آلهة الشعب الفيدي موجودة في العقيدة الهندوسية حتي اليوم بصورة أخف من السابق لتأثير الأديان الجديدة في النفور من الهندوسية كالإسلام والمسيحية وأيضاً لتحكم القوانين البشرية الجديدة والعولمة في السطوة القديمة للطقوس الفيدية القاسية.

وتعتبر الفيدا من أقدم العلوم التي عرفها الإنسان ويعتقد أنها موجودة منذ أكثر من خمسة وعشرين ألف سنة وقد تناقلها حكماء الهند من جيل إلى جيل عبر التعليم الشخصي. منذ أكثر من ٢٥٠٠ سنة تم كتابة هذه المعرفة ووضعت في عدة مجلدات كبيرة وقسمت إلى عدة أقسام وجزئت الأقسام إلى عدة أجزاء. وهذه الأقسام والأجزاء تشرح عن عملية ظهور الخليقة من المستوى غير الظاهر إلى المستوى المادي.

د–خلق العالمو النفس

لقد نشأت مشكلة لما كثر عدد الآلهة ، هي: أي من هؤلاء الآلهة خلق العالم؟ فكانوا يعزون هذا الدور الأساسي تارة لـ "آجنى" وتارة لـ "إندرا"وطوراً لـ "سوما"وطوراً رابعاً لـ "براجاباتي" ، وفي أحد أسفار "يوبانشاد" يعزي خلق العالم إلى خالق أول قهار:

"حقاً إنه لم يشعر بالسرور، فواحد وحده لا يشعر بالسرور، فتطلب ثانياً؛ كان في الحق كبير الحجم حتى ليعدل جسمه رجلاً وامرأة تعانقا، ثم شاء لهذه الذات الواحدة أن تنشق نصفين، فنشأ من ثمَّ زوج تملؤه الزوجة، وعلى ذلك تكون النفس الواحدة كقطعة مبتورة ... وهذا الفراغ تملؤه الزوجة، وضاجع زوجته وبهذا أنسل البشر؛ وسألت نفسها الزوجة قائلة: "كيف استطاع مضاجعتي بعد أن أخرجني من نفسه، فلأختف" واختفت في صورة البقرة، وتقلب هو ثوراً، فزاوجها، وكان بازدواجهما أن تولدت الماشية، فاتخذت لنفسها هيئة الفرس، واتخذ لنفسه الجواد، ثم أصبحت هي حمارة فأصبح هو حماراً، وزاوجها حقاً، وولدت لهما ذوات الحافر،

وانقلبت عنزة فانقلب لها تيساً، وانقلبت نعجة فانقلب لها كبشاً، وزاوجها حقاً، وولدت لهما الماعز والخراف، وهكذا حقاً كان خالق كل شئ، مهما تنوعت الذكور والإناث، حتى تبلغ في التدرج أسفله إلى حيث الكمال، وقد أدرك هو حقيقة الأمر قائلاً : "حقاً إني أنا هذا الخلق نفسه، لأني أخرجته من نفسي، من هنا نشأ الخلق" . وتعد فكرة النَّفس عند بوذا من الأمور التي يَكتنفها الغُمُوض والإبهام، وهي إحدى نُقَط الضَّعف في الفلسفة البوذيَّة.

هـ–المعرفة والواقع

رحلة بوذا إلى المعرفة:

ترَك بوذا حياةَ النَّعيم والترف،ثم هام على وجهِه في الغابات في الظَّلام على جواده، حتى إذا أسفر الصُّبح، فيُصبح وقد أماط عنه كلَّ الحُلِيَة يَلبسها،وأرسَلها مع حصانه إلى منزله[23]، أو قايَل قرويّاً تبادَل وإيَّاه الملابس.[24]

لقد ظلَّ بوذا على هذا الحال ، واستقرَّ به المقام في الغابة ست سنوات،قابَل فيها راهبَيْن من البراهمة،فبَقِي معهما وتتلْمَذ عليهما،وأراد عن طريقِهما أن يصلَ إلى غايته،لكن بعد فترة تأكَّد له أن ما يعيشان فيه من زهادةٍ وتقشُّف شيءٌ مقصود لذاته،كأنه الغاية التي يتطلَّعان إليها، وكان بوذا يريد الزهادةَ وسيلة لمعرفة أسرار الكون، وليس غاية مقصودة،لذا فقرَّر هجْر هذين الراهبين، وقرَّر أن يسعى بنفسِه لنَيْل المعرفة، وكَشْف أسرار الكون، وقد سلَك من أجْلِ هذا وسائلَ متعددة؛ كالتصوُّف والفلسفة.[25]

لقد بدأت رحلتُه بالعُزلة والتكشُّف، ثم خلَع ثيابَه، واكتَفى برقاع أو أوراق شجر يَستر بها عورتَه، وأهمَل الطعامَ والشراب والملاذَّ ، ويقال،إنه كان يَبتلع مقدارًا ضئيلاً من الطعام، بلَغ أحيانًا حبَّة من الأرز في اليوم الواحد.

اتَّخذ هذا سبيلاً لكشْفِ أسرار الكون، وقام بألوانٍ من الرِّياضات النفسيَّة؛ ليُطهِّرَ نفسَه.

لقد أمضى بوذا في هذا الصِّراع سبع سنين، ولَم يحسَّ في نهايتها بأيِّ أثر يوصله إلى غايته، وبعد أن ضَعُفَ جسمُه وقلَّت قوَّته، وجَد أنَّ هذه الطريقةَ لَم تُجْدِ نفعًا منه إلاَّ العذاب الذي ناله.[26]

ونتيجة لِما سبَق فقد أقدَم بشجاعةٍ على ما لَم يكن معهودًا على نُسَّاك عصره، فأعلَن تمرُّدَه على هذه الطريقة،وهجَر حياةَ التقشُّف، وعاد إلى طعامه وشرابه وكسائه،وأعلَن أنَّ خير وسيلة إلى غايته عقلٌ يتغذَّى في جسمٍ سليم[27]،وقد خيَّب فِعْله هذا أتباعه ففارَقوه،لكنَّه رغم ذلك لَم يغيِّر شيئًا من أفكاره وفلسفته،بينما هو يمشي وحيدًا موحشًا، مال إلى شجرةِ تينٍ في غابة؛ ليتناول طعامَها، ويتفيَّأ ظلالها، ويُنعم النظر في حالِها وفي حال العالم أيضًا،وساءَل نفسَه :ما سبب تبرُّمي وتبرُّم البشرِ جميعًا؟ وما مصدرُ الشقاء والمرض؟ وما عِلَّة الشيخوخة وبشاعة الموت؟.[28]

ولقد طال به المقامُ تحت هذه الشجرة،وأحسَّ برغبة في البقاء تحتها بعض الوقت، وفي هذا المكان حدَث ما كان يتمنَّاه، فانشرَح صدرُه،ولاحَت له أضواء كاشفة، فخرَج على ضوئها ونورها من التأمُّل والتعبُّد.[29]

يقول بوذا عن هذه اللحظة:"سَمِعت صوتًا من داخلي يقول بكلِّ جلاءٍ وقوة:نعم في الكون حقٌّ أيها الناسك، هناك حقٌّ لا ريبَ فيه، جاهِد نفسَك اليوم حتى تنالَه"،فمكَث تحت الشجرة،وألْزَم نفسَه الجلوس تحتها؛ حتى يعرف الحق الذي يُنشده، يقول"فجَلَست تحت تلك الشجرة في تلك الليلة من شهر الأزهار، وقلتُ لعقلي وجسدي:اسمعا، لا تَبرحا هذا المكانَ ؛ حتى أجد ذلك الحقَّ ، لينشف الجلد، وليقف الدَّمُ عن الجَرَيان، لن أقومَ من مقامي؛ حتى أعرف الحقَّ الذي أنشدُه، فيُنجيني.[30]"

ولكن السؤال الذي يطرحُ نفسَه:كيف عرَف بوذا هذا الحقَّ ؟

إنَّ هذا من الأمور الغامضة في حياة بوذا،ويفسِّر ذلك الإشراق والضوء الذي عرَف به سرَّ الكون، وللدكتور الرامبوري تفسير دقيق لهذه اللحظة، يقول :إذ أخَذته نزعة سماوية، فغاب عن نفسه وعن كلِّ ما حوله، وطَفِق يطرأ عليه حال بعد حال، ويلحق طورًا وراء طور، ثم عاد شعوره يتجلَّى رويدًا رويدًا، فأشرَق الكونُ لَدَيه، وانشرَح صدرُه، ورأى الكونَ في تكوُّناته باتوه،تقلُّقذاق سرورًا ما خطَر ببالِه من قبلُ، ووجَد قوةً ما استشعَر بها قطُّ ، فأبصَر ينابيعَ الحياة، وأحاط بمنابعِ الآلام، واستوعَب منابت البؤس، واكتشَف مقاليد السرور، ورأى سبيلاً يَهدي إلى تلاشي الأحزان وزهوق الآلام، فأدرَك متمنَّاه ونال مُبتغاه، وتخلَّصَ من تقلُّبات الحياة، ونجا من حزازات الآلام، وتيقَّظ شعوره، وتنوَّرت بصيرتُه، واستوى على عرشِ البوذيَّة، وصار بوذا عالِمًا متنورًا.[31]"

وقد سجَّل بوذا هذه اللحظةَ الحاسمة، فقال"لَمَّا أدركتُ هذا، تحرَّرتُ من الهوى، وتحرَّرت من شرورِ الكون الأرضي، تحرَّرت من شرور الخطأ، تحرَّرت من شرورِ الجهل.[32]"

أمَّا عن الشجرة التي يجلسُ تحتها بوذا عندما تَمَّ له الكشف،وسُمِّيت" شجرة العلم"، أو" الشجرة المقدَّسة"،"وقد احتلَّت عند البوذيين مكانةً سامية، مثل مكانة الصليب عند المسيحيين.[33]"

وبعد أن تمَّ له الكشف،وعرَف أسرار الكون،استقرَّ رأيه على أن ينشرَ دعوته،فترَك الغابةَ إلى مدينة" بنارس"ودعا رفاقَه الخمسة الذين زامَلوه في فترةِ جهاده وتقشُّفه،فقَبِلوا دعوته،ثم جمَع حولَه مجموعةً من الشباب بلَغ عددهم مائتين،وعلَّمهم مبادئ دعوته،ووكلَ إليهم القيامَ بنَشْرها، والْتَفَّ حول دعوته عددٌ كبير من الرجال والنساء،واشتُهِرت دعوته باسم" النظام."

وليست تدلنا الشواهد على أن الديانة الفيدية في أولى مراحلها كان لها معابد وأصنام ، بل كانت مذابح القرابين تنصب من جديد لكل قربان يراد تقديمه، كما هي الحال في فارس الزرادشتية، وكان يناط بالنار المقدسة أن ترفع القربان الممنوح إلى السماء، وفي هذه المرحلة تظهر آثار ضئيلة من التضحية بالإنسان، كما ظهرت في فاتحة المدنيات كلها تقريباً، لكنها آثار قليلة يحوطها الشك، وكذلك أشبهت الهند فارس في أنها كانت تحرق الحصان أحياناً ليكون قرباناً تقدمه للآلهة وأن "أشفاميزا"- أو "تضحية الجواد"- لمن أغرب الطقوس جميعاً، إذ تخيل للناس فيها أن ملكة القبيلة زاوجت الحصان المقدس بعد ذبحه على أن القربان المعتاد هو أن يكسب

قليل من عصير "سوما" وأن يصب شيء من الزبد السائل في النار ، وكانوا يحيطون القربان برقى السحر، فلو قدمه على النحو الأكمل جاءته بالجزاء المطلوب بغض النظر عما هو حقيق به من ثواب بالنسبة إلى خلقه الشخصي ، وكان الكهنة يتقاضون أجوراً عالية على مساعدة المتعبد في أداء طقوس القربان التي أخذت تزداد مع مر الزمن تعقيداً، فإذا لم يكن بوسع المتعبد أن يدفع للكاهن أجره، فكان يرفض أن يتلو له الصيغ اللازمة، فأجره لا بد أن يسبق ما يدفع لله من أجر، ولقد وضع رجال الدين قواعد تضبط مقدار ما يدفعه صاحب هذه العبادة- كم من الأبقار والجياد وكم من الذهب، وقد كان الذهب بصفة خاصة عميق التأثير في الكهنة والآلهة وفي "أوراق البراهمانا" التي كتبها البراهمة، إرشادات للكاهن تدله على الطريقة التي يستطيع بها أن يقلب الصلاة أو القربان شراً على رؤوس أصحابه إذا لم يؤجروه أجراً كافياً ، وكذلك سنوا قوانين أخرى تفصل دقائق المحافل والطقوس التي ينبغي أن تقام في كل ظرف من ظروف الحياة تقريباً، وهي عادة تتطلب معونة الكهنة في أدائها، وهكذا أصبح البراهمة شيئاً فشيئاً طبقة ممتازة، تسيطر على الحياة الفكرية والروحية في الهند سيطرة تهددت كل تفكير وكل تغيير بالمقاومة المميتة.

كما يعتبر رمز (OM) من أشهر الرموز وأكثرها قداسة في الديانة الهندوسية، وتعود قداسته إلى اعتقادهم أنه البذرة المقدسة الأولى، أو أنه أول صوت أو لفظ تم النطق به، وأن الكون خلق بواسطته، وأنه تكمن فيه قوة الكون، ولهذا فهو يشير عندهم إلى الإله (براهما) ؛ (لأن براهما هو كل شيء وتقوم فلسفة هذا الرمز على اعتقاد الهندوسية أن ثمة عدة طرق يتحقق من خلالها تحرر الإنسان من الحزن، ووصوله إلى الغبطة الحقيقية الأبدية، أو تحقيق الذات، أو الإتحاد بالإله(براهما) .

و –التأمل والتفكير : لا يخفى ما في دراسة الفكر التأملي من منفعةً كبيرة: إذ يتبين من هذه الدراسة أنها تساعد الدول المتخلِّفة على النهوض بنفسها ومواكبة الدول المتقدمة في سائر المجالات. فإذا كان التأمل هو ةن السيطرة الذاتية العقلية على الذهن والأفكار وعلى تدفُّق الصور الذهنية أو منع تدفقها أو تغيير اتجاهها ونوعيتها"، فإن الدراسات البسيكولوجية تشير في وضوح إلى أن الصور التي تتشكل في عقل الإنسان، والتي غالبً ا ما تكون ثمرة التأمل، تؤثر على الفكر والجسم معً ا. فبالإضافة إلى أن التأمل مؤثر كبير على الذهن والنفس والجسم، من خلال إدراك الحواس للصورة الداخلية التي تتشكل في العقل، فإن التقدم في قدرة الفرد على التأمل تقود، بحسب المختصين في هذا المجال، إلى القدر ة على *ضبط نشاط الذهن والجسم*، حتى فيما يتعلَّق بالأنشطة الفسيولوجية اللاإراديةوانطلاقً ا من أهمية التأمل هذه، تأتي هذه الدراسة لتحاول تقديم شيء من الإيضاح حول الموضوع. ومن باب التخصيص، سيكون التأمل عند البوذا هو مجال هذه الدراسة التي تهدف إلى الإجابة عن التساؤلات التالية:

- ما هو التأمل؟
- ما هي المنطلقات الفلسفية التي يستند إليها ممارسوه؟
- ما هي طُرُقه وحالاته في البوذية؟
- كيف يمكن الارتقاء في التأمل من مرحلة إلى مرحلة؟
- كيف تساهم ممارسة التأمل، بحسب البوذا، في تطوير القدرات العقلية؟

سيقوم الباحث بإعطاء تصوُّر أولي عن التأمل ومفهومه، قبل أن يتطرق إلى التأمل عند البوذا.

ويمكن لنا، إجمالاً، الخروج بتعريف واحد للتأمل، حيث يعبَّر عنه بـ

فن السيطرة الذاتية العقلية على الذهن والأفكار وعلى تدفُّق الصور الذهنية أو منع تدفقها أو تغيير اتجاهها ونوعيتها.

ليس التأمل الطريقة الوحيدة للتحكم في الذهن، وإنما هو أقدم تلك الطرق وأبرزها. والحاجة إلى التحكم في الذهن تبرز عندما تصبح الخواطر والصور وانعكاسات الحواس هي التي تقود العقل، بحيث تسيطر هذه الأمور على العقل عبر تكرار تدفقها على الذهن ودورانها فيه، منتجةً كلَّ مرة المشاعر والسلوكيات نفسها بحسب طبيعة الخواطر والصور وانعكاسات الحواس المتدفقة على العقل. فبمرورالوقت، يُنتِج تذكُّرة أو فكرة ما، سبق للشخص أن خَبِرَها، النتائجَ نفسها، كون العقل يتعامل معها على أنها حدث حقيقي وليست مجرد تجربة سابقة. بذا قد يصبح العقل أسيرًا لفكرة ما أو صورة أو وهم.وهذا يتقاطع مع ما يشير إليه مبحث الأعصاب من أن تذكُّر الأحداث المهمة يدفع العقل مباشرة إلى ردود الأفعال الفسيولوجية ذاتها التي أطلقها نتيجة للحدث الواقعي الماضي، وذلك امتثالاً لنوع من المنعكَس الشرطي.

حاول أغلب الدراسات التي عالجت الموضوع الإجابة على التساؤل التالي: لماذا تبدو أفكارنا ومشاعرنا وتصرفاتنا، في كثير من الأحيان، خارجةً عن إرادتنا، بينما عندما تسير وفق إرادتنا فإن أداءنا يتحسن؟ هناك إجابة لافتة لدانيال كولمنس عن هذا السؤال،وهو وإن لم يشر إلى موضوع التأمل صراحةً إلا أن الإجابة التي قدَّمها تنطوي ضمنًا على مفهوم التأمل، حيث اعتبر أن

[...] وعي المشاعر والانتباه إليها لحظة انبثاقها هو الحجر الأساس في الذكاء الشعوري والعاطفي. فتمكُّنك من التعامل الصحيح مع المشاعر، بحيث تحوِّلها إلى مشاعر إيجابية ذات قيمة ومعنى، هو أبرز خصائص الوعي الذاتي.

الأسُس الفلسفية للتأمُّل البوذي

يُعتبَر التأمل من أبرز النشاطات البوذية، وهو يندرج ضمن المناسك والرياضات الروحية. والهدف الأساسي منه تحقيق الغاية البوذية، وهي الوصول إلى *الخلاص من الشقاء*، وذلك عبر اختبار *التيقظ والاستنارة* التي تتوَّج ببلوغ حالة "التبوذ" (إذا جازت الترجمة). لقد درج حديثًا استعمالُ مصطلح *يوگا* للإشارة إلى التأمل، إلا أن الأدبيات البوذية تعتمد مصطلح "تأمل" لوصف هذه الرياضات. وتأتي لفظة "تأمل" في العربية كمقابل للفظة *بهاڤنا* البالية التي تعني حرفيًّا "تفتح العقل".

تشكِّل حالة *النيرڤانا* الخلفية والأساس الفلسفيين لفهم التأمل؛ وهي صفة للمرتبة التي يسيطر فيها الإنسان على جميع مسبِّبات الشقاء، من شهوة وحقد وجهل وتُطلَق على المسبِّبات الثلاثة لفظةُ *كرما*. وبلوغ النيرڤانا يعني ضمنًا المرور باستهلاك الكرما السيئ عن طريق تنمية الوعي والإدراك. لذا فإن حالة النيرڤانا الكاملة لا يمكن بلوغُها إلا بالانعتاق التام من الكرما. على هذا الأساس، فإن النيرڤانا الكامل يعني الموت، لأن استهلاك الكرما استهلاكًا تامًّا لا يحصل إلا بموت الإنسان. من هنا فإن النيرڤانا الكامل متاح نظريًّا للجميع؛ أما تحقيقه، بحسب البوذية، فمقتصر على الرهبان المكرَّسين الذين يعملون بالوصايا الثماني النبيلة.

يوضح البوذا المقصود بالنيرڤانا بأنه مرحلة الانطفاء أو *الفناء*، حيث يشبِّه الإنسان بالشعلة والكرما السيئ الذي يدفعه إلى الشقاء بوقود الاحتراق: عندما ينفد الوقود – ويقصد به الشهوة والحقد والجهل – فإن الشعلة تنطفئ والشقاء ينتهي ففي إشارة إلى أن شعلة الشقاء لن تعود، يقول: "بعد أن ينفد وقود الاحتراق لن يستطيع المصباح إشعال نفسه بنفسه." لذلك فإنه، بحسب البوذا، لا يمكن اعتبار النيرڤانا حالةً فورية، بل مقام يُنال تدريجيًّا بمقدار الانعتاق من الكارما.

يؤخذ على البوذية، في هذا الصدد، أنها لا تقدم للإنسانية خلاصًا من الشقاء، بل تخدير وحسب. فمارسيل كونش، مثلاً، يستدل على ذلك بالأثر التالي، ويعلِّق عليه:

قال أحد البوذيين لصديقه مرة: "النيرڤانا هو السعادة." فسأله صديقه: "ولكن ما هي تلك السعادة إذا لم تتضمن أيَّ حس؟" فأجابه الأول: "إلغاء الحس – تلك هي السعادة بعينها." و"إلغاء الحس" هنا لا يعني فقط الخلاص من الألم، بل الخلاص من نقيض الألم. فأين السعادة حينذاك؟

مهما يكن من أمر، فإن بلوغ النيرڤانا يتطلب الدأب على رياضات خاصة؛ ويُعتبَر التأملُ الرياضةَ الأنسب في البوذية. وفي هذه الجزئية، لن نبحث في التأمل كممارسة، وإنما كفكر يظهر جليًّا في درجات التأمل الأربع التي تنسجم مع الحقائق الأربعة سابقة الذكر. يبدأ المتأمل في الدرجة الأولى *بالسيطرة على الحواس*؛ ثم يعمل على *تطويع المخيلة*؛ وثالث درجة تبدأ *بانسحاب الحس من موضوعاته* – حتى يصل المتأمل إلى المرحلة الأخيرة حين *يستغرق العقل في موضوع تأمله*.

فلسفة اليوگا تقوم على عدم الفصل بين المرئي واللامرئي، وتعتبر الجهل بهذه الحقيقة علَّة الآلام والشرور. ويتضح الجهل في عدم معرفة جوهر الحياة، التي لن تتحقق إلا عندما يتخلص الذهن من حالة العبودية المتمثلة في تعلُّقه بخيرات العالم: عندما يتخلص الذهن من هذه العبودية فهو يسير قُدُمًا نحو الحرية. واليوگا أو التأمل فيه ما يساعد على تحرير الذهن من تلك القيود، ولذلك فإن ممارسته جزء لا يتجزأ من طريق *معرفة الذات*.

وكما تنطوي لفظة *يوگا* على مضامين فلسفية، فإن لفظة *بوذا* تتضمن معاني اليقظة والوعي: فحتى يصبح الشخص "مستيقظًا" عليه، بحسب البوذا، أن يعرف نفسه معرفة تامة، عبر إدراكه لمكوِّنات الإنسان كلِّها، البدنية والنفسية والذهنية، مستعملاً التأمل لتحقيق هذه الغاية. فممارسة التأمل تقود إلى معرفة حقيقة طبيعة الإنسان، التي تقود إلى *العلم بالطاقة المسؤولة عن ظهور الخواطر والتحكم بها*. هذا في خصوص الأساس الفلسفي العملي الذي ينطلق منه ممارسو التأمل البوذي.

القاعدة الأخلاقية للتأمُّل البوذي

اتضح لنا مما سبق أن التأمل في البوذية ما هو إلا وسيلة للدخول في النيرڤانا بغية الخلاص من الشقاء. لكن حتى تكون هذه "الوسيلة" ذات فاعلية، فإن البوذية تضع شروطًا لذلك، تمثل في مجملها قاعدةً أخلاقية تحكم سلوك الإنسان، بما يساعده على اجتياز مراحل التأمل من غير إخلال بتوازنه الداخلي ويُطلَق على القاعدة الأخلاقية هذه "الدرب المثمَّن النبيل"، حيث تزداد الفائدة من التأمل كلما ارتقى الإنسان في سلَّم الأخلاقيات تُشتَق المراحل الثماني من الحقيقة النبيلة الرابعة عند البوذا، وهي *الطريق المؤدي إلى زوال الشقاء*، وهي على الترتيب:

١. الرؤية السوية (أو المعرفة الصحيحة)،
٢. التفكير السو ي (أو النية الصحيحة)،
٣. القول الصحيح (الصدق)،
٤. السلوك السو ي،
٥. العيش السو ي (الارتزاق الصحيح)،
٦. الجهد السو ي،
٧. الانتباه السوي، وأخير ًا
٨. التركيز السو ي.

وتسبق التدرج َ في هذه المراحل أمور ٌ تمهيدية أيض ًا، هي بمثابة فضائل، كالإحسان والرحمة والتفكير الإيجابي والرزانة، بالإضافة إلى تعويد النفس على الأعمال الاجتماعية الحسنة، كالصدقات، وذلك بالتوازي مع التزام تعاليم البوذا السلوكية؛ ويمكن من خلالها القضاء على الأصول الثلاثة للشرور: الشهوانية والحقد والوهم. وهي تشمل:

١. الكف عن القتل،
٢. الكف عن أخذ ما لا ليس لك،
٣. الكف عن الكلام السيئ،
٤. الكف عن السلوكيات الحسية المشينة، و
٥. الكف عن تناول المسكرات والمخدرات.

وبعد أن يبني الإنسان هذه القاعدة السلوكية والأخلاقية، يصبح، بحسب البوذا، مؤهلاً للاستفادة من ثمار التأمل.وانطلاق ًا من هذه القاعدة، يفسِّر البوذيون عدم تحقيق ممارسي التأمل من غير البوذيين النتائج المأمولة، إذ لا يلتزمون التعاليم السلوكية المحددة في البوذية. فالتأمل، في البداية، قد يقتصر من حيث النتائج على تثبيت الإنسان في القاعدة السلوكية سابقة الذكر: فبإعمال العقل في الصور والخواطر المتدفقة عليه، وتثبيتها في الذهن في أثناء التأمل، تنكشف للعقل تدريجيًّا الحقائقُ البوذية، فيتخلَّص من الأفكار والسلوكيات الخاطئة. أما في مرحلة متقدمة من التأمل، فينتقل الإنسان من مرحلة مقاومة السلوكيات الخاطئة إلى تطوير الفضائل المؤدية إلى الخلاص.

المرحلة المتقدمة في التأمل هي الخروج من العالم الحسي، أو بحسب الطب الحديث، فقدان الإحساس بالزمان والمكان.يُطلق على هذا الأمر في بعض مذاهب البوذية *الخروج من العناصر*

الخمسة. فعلم الفيزياء في الصين القديمة كان يعتبر أن المعدن والخشب والماء والنار والتراب هي العناصر الخمسة المؤلِّفة لكلِّ ما حولنا من أشياء وكائنات. وفقدان الإحساس بالزمان والمكان يعني التخلص من محفزات السلوكيات السيئة التي هي علَّة الشقاء.

هناك مصطلح تكرَّر وروده، وهو كرما. في البوذية يقال إنه "المادة السوداء" الناجمة عن كلِّ ما هو سيء. والمقصود هنا هو أن الكرما ليس مقتصراً على الشخص نفسه، بل هو، في الآن نفسه، نتاج لتراكم كرما أسرة أو عشيرة، أي كرما موروث من الأسلاف إلى الأخلاف. وكذلك الأمر في خصوص الكرما الجيد، وهو "المادة البيضاء". فللتخلص من الشقاء يجب أن تتحول المادة السوداء إلى مادة بيضاء؛ وهذا لا يتم من غير العبور في مصهر الألم

أنماط التأمُّل

للتأمل وضعيات وأنماط مختلفة تساهم في تهيئة الإنسان للدخول في حالة تأمل. وتُعتبَر هذه الجزئية من الأمور الفنية في ممارسة التأمل؛ وهناك مدارس خاصة لتعليم التأمل كممارسة. لكن الفكرة الكامنة من وراء اتخاذ هذه الوضعيات هو تعويد الشخص على نمط معيَّن، إذا ما وضع نفسه فيه فإنه يدخل تلقائيًّا في حالة تأمل. ويُستحسَن الاستمرار في اتخاذ وضعية تأمل بعينها لفترة طويلة حتى يعتاد الإنسان عليها؛ وبعد هذه المرحلة، يمكن للمرء تغيير وضعية التأمل إلى شكل جديد حتى يطوِّر قدراته.

هناك، إجمالاً، نمطان للتأمل: النمط الأول يضم وضعيات التأمل الخاصة بالتهدئة، مثل تتبُّع التنفس وضبطه؛ أما النمط الثاني، فيتعلق بـ"البصيرة النافذة" (*فيباسانا*)، ويشمل الممارسات التأملية التي تنمِّي الوعي عبر *الانتباه الواعي إلى الأشياء*. وضمن هذين النمطين تتدرج وضعيات التأمل الشكلية التي تشمل ثلاث وضعيات هي:

١. التأمل في وضعية الجلوس، وهي أشهر الوضعيات؛
٢. التأمل في وضعية المشي، مع التركيز على حركة الأعضاء؛
٣. التأمل في مجمل النشاطات اليومية، بالانتباه إلى حركات الجسم كلِّها ومراقبتها.

قد يكتفي المتأمل بوضعية واحدة، لكن التقدم في عملية التأمل وإتقانه في الوضعيات الثلاث السابقة يجعل من الإنسان متنبهاً وواعياً معظم الوقت، سواء كان جالساً أو ماشياً أو قائماً بأعماله المعتادة.

كلَّ فرد وكلَّ شيء في هذا العالم هو جزء من ذاتك، تمامًا كما يشعر الإنسان أن جسمه البشري هو جزء من ذاته.

ز – المجتمع والفكر

لقد كانت المصفوفة الاجتماعية التي نشأت فيها الديانة البوذية من المنظومات التي تضع المرأة في وضع أدنى من الرجل ، إذ لم يختلف المجتمع الهندي جذريا عن ما كان الوضع عليه في المجتمعات الأخرى ، حيث أن البوذية قد غيرت فكرة تعامل المرأة في كثير من النواحي وأصبحت بالفعل أكثر تحرراً مع ظهور البوذية.

قبل ظهور البوذية كانت الهند تعيش في ظلِّ الديانة البرهميَّة، مع ما جاءَت به من تعاليم ظالمة للناس،فجاءت البوذية تخفيفًا لِما جاءت به البرهميَّة من تعاليمَ ، وإزالة ما أحدَثته من تفريق بين الناس،فالناس في الديانة البرهميَّة ليسوا سواءً؛ من حيث العبادةُ أو الزهد، بل إنهم مختلفون من حيث الطبقات والأعمال.فقد قسَّمت البرهميَّةُ النَّاسَ إلى أربع طبقات:[6]

الطبقة الأولى وهي الأعلى، وتسمَّى طبقة البراهمة، وهم رجال الدين الذين يتبنون أحكامَه.

الطبقة الثانية وهم طبقةُ الجند،ويزعمون أنَّهم خُلِقوا من مناكب" براهما "ويَديه، وهم الحُماة والغُزاة،ومَرتبتهم دون البراهمة.[7]

الطبقة الثالثة طبقة الزُّراع والتُّجَّار،وهم مخلوقون من رُكبتي الإله، والفارق بينهم وبين من سبقهم كبيرٌ جدًّا.

الطبقة الرابعة طبقة الخَدَم والأسارى، قد خُلِقوا من قدم الإله براهما، وهي أقلُّ الطبقات عندهم.

وبعد هؤلاء هناك طبقة المحرومين وأبناء الزِّنا، والذين يتناوَلون الأعمال القذرة في المدن، والأعمال الحقيرة،فكان أوَّلُ مَن دخَل في البوذية هم أولئك الذين ظَلَمهم التقسيمُ الطبقي البرهمي، وبعد ذلك صاروا أتباعًا لبوذا؛ لذا فإنَّ الحديثَ عن البوذية سيكون على أنها ديانة خرَجت على البرهميَّة.

ويذكر أن الديانة الهندوسية في وقت بوذا كانت عنصرية تجاه الانثى إلى حد ما، فقد كان على الأنثى ان تكون في كنف والدها أو زوجها أو أخيها ويجب أن تخضع لطوعهم مجملا، وليس لها أن تكون مستقلة بأي شكل من الأشكال.

لقد تم اعلان الرسالة البوذية لتكون عالمية ولتتدخل في المجتمعات بشتى أشكالها وطرقها، فقد استثنت العنصرية على حساب الجنس أو اللون أو العرق أو الدين، لذا فقد أعطت البوذية للنساء الحق في الرهبنة والتشارك الروحي مع الرجال والقيام بأمور الدين المختلفة كالصلاة والتعبد وإن لم تكن البوذية ديانة تعبدية ولكنها تعتمد أكثر على التأمل في حقيقة الكون .

البوذوية بشكل عام في البوذية هي حالة التنوير الأمثل، لذلك فمصطلح 'بوذا' عادة ما يشير إلى الشخص الذي أصبح مستنيرا ، أي تيقظ إلى معرفة الحقيقة، أو *دارما*. على حسب المذهب

البوذي فإن المستوى الذي تتطلبه هذا الحالة من التجرد عن مظاهر الحياة العادية ممارسة الزهد يتراوح من لا شيء على الإطلاق إلى الشرط المطلق.

بالنسبة للبوذية المبكرة والبوذية في العصور الوسطى ، فعلى الرغم من أن النصوص البوذية المبكرة مثل مقطع (بيتكا فينيا كانون بالي كولافاجا) تحتوي على كلمات من غاوتاما بوذا يتحدث عن حقيقة كون المرأة انه يمكنها تحقيق التنوير، إلا أن في الواقع يصعب (بل يستحيل) على المرأة الوصول للبوذوية، وهذا ما تم تطبيقه في أرض الواقع أنه لا يمكن للمرأة أن تصل للبوذوية. **ونجد أن** المرأة عند بوذا لَم تكن منعزلة عن المجتمع لكنَّه تردَّد في أن يَجعلها من أتباعه؛ حتى إنه حذَّر من التعامل مع النساء، وقد سأله ابن عمه ذات مرة: كيف نعامل النساء؟ فقال:لا تنظر إليهنَّ ، فقال له ابن عمه لكن إذا اضطُرِرنا للنظر إليهنَّ ، قال له: فلا تُخاطبهنَّ ،فقال له ابنُ عمه لكن إذا خاطَبْنَنا، فأجاب إذًا:كُنْ على حذرٍ تام منهنَّ .

ولقد ظلَّ ابن عمه يلحُّ عليه لضمِّ النساء ورأى أنَّ في ذلك خطرًا على المجتمع وعلى البوذية أيضًا، فقال لَو لَم نضمَّ المرأة، لدام النظام الخالص طويلاً ، أما الآن بعد دخول المرأة بيننا، فلا أراه يدوم طويلاً .[87]"

وقال في موضعٍ آخرَ "إذا عاشَرت النساء اعتبرهنَّ بمكان الأمِّ لكي كنَّ عجائزَ ، واعتبرْهنَّ شقيقاتٍ لك إن كنَّ شابات وحذَّرَ أتباعَه وتلاميذه من المرأة كثيرًا، فقال" إنَّ المرأة مثل التمساح الذي ينتظر على ضفة نهر الحياة؛ ليلْتَهمَ أوَّل سابحٍ يراه.[88]"

في القرن العشرين وصلت الراهبة تنزين بالمو التابعة للمدرسة البوذية التبتية إلى حالة التنوير، وذكرت (لقد جعلت من نذري تحقيق التنوير في شكل الإناث – بغض النظر كم من العمر استغرق تحقيق هذا)

وأما في الجانب الفكري فقد كانت هناك مواجهات فكرية طبيعية أي جاءت كردة فعل لما كانت تعاليم بوذا شديدة الزهد والتجرد عن الدنيا. وكانت تعاليمه تدين بشدة وصرامة كافة ألوان الممارسات الشعائرية الوثنية والطبقية التي تشكل البقايا الأخيرة للفترة (الفيدية) البرهمية. لاقى بوذا وأتباعه بسبب ذلك اضطهادا كبيرا في الهند بعد الانطلاق الهائل لتعاليمه بين الناس. وبسبب هذا الاضطهاد التجأ رهبان بوذيون كثر إلى الصين هربا من اضطهاد البرهميين، فلم تلقى التعاليم البوذية سوى التهكم والسخرية من الرهبان البراهمة الذين رموه بالكفر والإلحاد، وذلك لأن بوذا نادى بالمساواة بين الناس جميعا وثار على نظام الطبقات والتفرقة العنصرية بين الناس ذلك النظام الذي وضعه رجال الدين البراهمة والذي يقسم أتباع الديانة البرهمية إلى ثلاث طبقات، وسوف نتحدث عن هذا الموضوع في المقالات القادمة .

ح–الموت والخلود

أما عن الموت والخلود فأننا نجد أن الفكر الهندي القديم قد تناول من خلال الديانات الهندية القديمة والمتمثلة بالهندوسية والبوذية أفكاراً عن الموت والخلود ، ويبدو أن بذرة مذهب وحدة الوجود وتناسخ الأرواح،كانت شائعة فنجد عندهم فكرة الخالق وخلقه شيء واحد، وكل الأشياء وكل الأحياء كائن واحد، فكل صورة من الكائنات كانت ذات يوم صورة أخرى، ولا يميز هذه الصورة من تلك ويجعلهما حقيقتين إلا الحس المخدوع وإلا تفريق الزمن بينهما؛ هذه النظرة لم تكن قد ظهرت بعد أيام الفيدا جزءاً من العقيدة الشعبية، وان تكن قد لقيت صياغتها على هذا النحو في "يوباتشاد" ، فالآرى الهندي- مثل زميله الآري الفارسي- بدل أن يعتقد في تناسخ الأرواح على صور متتابعة، آمن بعقيدة أبسط، إذ آمن بالخلود الشخصي، فالروح بعد الموت تلاقي إما عذاباً أو نعيماً، فإما أن يلقيها "فارونا" في هوة مظلمة سحيقة، أو في جهنم ذات السعير، وأما أن يتلقاها "ياما" فيرفعها إلى الجنة حيث كل صنوف اللذائذ الأرضية قد كمأت ودامت إلى أبد الآبدين، وفي ذلك يقول سفر "كاثا" من أسفار يوبانشاد: "يفني الفاني كما تفني الغلال، ويعود إلي الحياة في ولادة جديدة كما تعود الغلال.

وبالرغم من ذلك فإنَّ البوذية شأنها شأن الدِّيانات الهنديَّة، تأثَّرت بمبدأ التناسُخ الذي يَستلزمُ القول ببقاء الذات، أو بعض عناصرها على الأقل، وهذا يتنافى مع مبدأ الكارما وفيه تناقضٌ واضح، إلاَّ أنَّ بوذا أشار إشارة مُبهمة لحلِّ هذه المشكلة، فرأى أنَّ أيَّفَردٍ من البشر مكوَّن من مجموعة من العناصر البدنيَّة والعقليَّة، وهي خمس مجموعات، هي:[53]

1- مجموعة الصفات البدنيَّة.

2- مجموعة الإحساسات.

3- مجموعة الإدراكات الحسيَّة.

4- ثالوث الفكر والقول والعمل.

5- الحالات الشعوريَّة الأخرى.

وعند الموت تَنفصل هذه المجموعات عن بعضها البعض،فيَفنى الفرد، ولا يُصبحُ له وجود باعتباره فردًا مستقلاً ، له مميزاته الخاصة، ومع أنه بهذا يفنى،إلاَّ أنَّ مبدأ الكارما الخاص به يَبقى، وهذا المبدأ يكون سببًا فيوجود الإنسان في بيئة مناسبة مخلوقًا جديدًا،لا يتذكَّر المخلوق السابق، ومع أنَّ المخلوقَ الجديد يعد في نظر بوذا من الناحية الخلقيَّة امتدادًا لوجود المخلوق السابقوترتُّب الوجود اللاحق على الوجود السَّابق هو الذي يسمَّى بالتناسُخ.[54]

هل استطاع بوذا بكلِّ هذه التعليمات والتوجيهات التي أتى بها، أن يمنعَ نفسَه من الموتِ وألَمهبل مات بوذا وأحسَّ بألَم الموت، ومات أتباعه،فالموت مقدَّر على كلِّ البشر، وحِرمان النفس من اللذائذ المباحة من هذه الدنيا، يَمنعها من الاستمرار في الاتجاه الصحيح على عكس ما قال بوذا.